السلسلة المشتركة للبحوث والمصادر
في تاريخ الجزيرة العربية وبلدان الخليج
رقم ٨

القرآن الكريم
في روسيا

تأليف
يفيم ريزفان

مراجعة وتقديم
قسم الدراسات والنشر والشؤون الخارجية

КУНСТКАМЕРА
معهد الدراسات الشرقية
المجمع العلمي الروسي فرع سان بطرسبورغ

مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث
خدمة متميزة... وعطاء مستمر

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴾

فقه القرآن

(ألفه وجمعه)

طلب رتب رتوب الكعب في محافل الأعلام السادة. وثبت ثبوت القطب على السماء في صفوف الاستفادة. وسار في الآفاق وأحل علماءها منه محل الإفادة. وجعل أندية العلوم محطاً للرحالة ومناخا للوفادة. ولا يزال يختلف على أبواب المدارس يبتغي من فضل الله الزيادة. ثم شمر ذيل العزم عن ساق الحزم في إبداء المقصد المحمود. طامعا أن يكون قد أتيح له أنه من خدم الكتاب الكريم معدود. فنشره خالصا لوجه الله راجيا أن يكون «فقه القرآن» مقبولا في جدول دروس المدارس. وأن ينتفع به كل طالب له نية حسنة ونصيحة شاملة، وعزم ماض، ودين خالص. والله أسأل أن ينفعني به وكل من رام الانتفاع به من إخواني. وأن يجعله من الأعمال التي لا ينقطع عني نفعها بعد أن أدرج في أكفاني. وقد تقرب إلى الله جل جلاله بشرح الطيبة والعقيلة والناظمة. لتكون علوم القرآن في مدارس الإسلام زاهرة مزهرة دائمة.

١٣٣٣ من السنة الهجرية. ١٩١٥م.

موسى جار الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفاتحة

١)- هي أول سورة نزلت تامة. وهي السبع المثاني والقرآن العظيم. وهي أم الكتاب، نسبتها إلى القرآن الكريم نسبة النواة إلى الشجرة، من حيث كونها مادة حياة لها، تحتوي على جميع أصولها وعناصرها الأولية. جعلت فاتحة الكتاب لأنها نزلت منبئة عن المطالب التي سينزل القرآن يفصلها تفصيلا، جامعة كل أصل سيبينه القرآن بياناً جزيلاً.

ومطالب القرآن الكريم أمور:

أ) التوحيد الخالص والإيمان بالله وأسمائه الحسنى الإلهية.

ب) تعريف السلوك على الصراط المستقيم في الحياة الإنسانية. ومنه بيان الحلال والحرام، وكل الأحكام الاجتماعية.

ج) تعريف الحال في المعاد والنشأة الأبدية. وهذه الثلاثة هي السوابق والأصول المهمة.

د) تعريف من آمن بالله وأجاب دعوته واستقام على الطريق القويم، والصراط المستقيم. وذلك قصص الأنبياء والأولياء وأهل الإيمان والصلاح. فقد ذكرهم وأثنى عليهم عظيم الثناء. وسره والمقصود منه الترغيب.

هـ) حكاية أحوال الناكبين ومن علا في الأرض فسادا من الطاغين. وذلك قصص القرون الأولى والأمم الخالية. وسره والمقصود منه الترهيب والإنذار بسوء العاقبة.

و) التعريف بطرق تعليم أهل الطلب، وطرق إرشاد أهل الزيغ بعد حكاية أقوالهم الزائغة. وسره والمقصود منه نشر الدعوة القرآنية وإعلاء الكلمة الإسلامية. وهذه الثلاثة هي التوابع المتممة.

وفاتحة الكتاب قد اشتملت على كل هذه المطالب العالية اشتمالا حسنا وأجملتها إجمالا جميلا.

والسنة الإلهية في هذا الكون سواء كان كون إيجاد أو كون تشريع أن يظهر الأمر مجملا، ثم يتبعه التفصيل بعد ذلك تدريجا على حسب ما توجبه العناية الأزلية، وتطلبه الحاجة الإنسانية. ونسبة كل سور القرآن إلى فاتحة الكتاب نسبة تفصيل وإيضاح لإجمال الخطاب. فلذا نزلت فاتحة الكتاب أولا؛ ثم تواترت الآيات والسور تفصيلا مكملا.

٢) – بسم الله الرحمن الرحيم: آية مستقلة تامة منفردة؛ لأنها ثبتت في جميع المصاحف الإسلامية أول كل سورة. جعلت علامة فاصلة بين السور، يعلم بها خاتمة سورة وفاتحة أخرى. واختيرت من بين الكلمات الإلهية فاصلة؛ لأنها كلمة استفتاح، وكلمة بركة، وتيمن، وكلمة استعانة بالله وتوسل برحمته. رسمت في جميع المصاحف أول كل سورة ونقلتها الأمة كافة بالتواتر كسائر الآيات القرآنية. فهي آية كاملة قطعا.

وكان النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يجهر بها في مكة. ولما هاجر إلى المدينة ترك الجهر بها إلى أن توفاه الله. ولأئمة القرآن في البسملة اختلاف، اختلاف قراءة لا اختلاف مذهب واعتقاد. فالكل في ابتداء السورة يبسمل. أما بين السورتين فورش وعاصم وابن كثير وأبو جعفر المدني والكسائي يبسملون. وحمزة يصل بين السورتين

ولا يبسمل. وخلف لا يبسمل له السكت والوصل. أما ابن عامر وابن العلاء، ويعقوب وقالون فلهم الوجوه الثلاثة: ١) البسملة، ٢) الوصل، ٣) السكت.

واختلاف الأئمة في البسملة عند الوصل يدل دلالة قطع على أنها ليست جزءاً من سورة. وإلا لما تركها عند الوصل أحد، ولما ترك النبي صلى الله عليه وسلم الجهر بها في المدينة.

ومن الأدلة على أن البسملة ليست جزءاً الأئمة الذين عدوا آيات السور لم يعدوها منها في سورة أصلا لا في الاتفاق ولا عند الاختلاف. ولم يقع ما يشبه الاختلاف إلا في سورة الفاتحة. وذلك أن الأئمة كافة قد اتفقوا على البسملة عند تلاوة الفاتحة مبتدأة كانت أو موصولة بسورة أخرى، تليت قبلها أو كانت مكررة قرئت مرة ثانية، لأن الفاتحة نزلت أول ما نزل، وافتتح بها كتاب الله، ونزلت معها البسملة، ورسمت في جميع المصاحف، فكانت الفاتحة مبتدأة حكما في كل أحوالها عند وصلها وعند إعادتها. واتفقت أئمة العد على أن الفاتحة سبع آيات. فالعد المدني والشامي والبصري عدّ **﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾** آية سادسة؛ وعدّ **﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾** آية سابعة. فالبسملة على هذا العد آية مستقلة منفردة. والعد المكي والكوفي جعل هاتين الآيتين آية واحدة سابعة، وجعل البسملة آية أولى من الفاتحة.

وهذا اختلاف لا يتعلق بالتلاوة ولا بكون البسملة قرآنا أو غير قرآن. وإنما هو اختلاف اعتبار. ولكل وجه اختيار. فإن الشارع كان يجهر بها مدة، ثم تركه في المدينة إلى أن مات.

وحيث ثبت من الشارع هذا وهذا، وثبت أن لما أخذ به كل إمام وجه ثابت وأن اختلاف الأئمة اختلاف توجيه لا اختلاف نفي، وإثبات تبين أن تفريع شيء من الأحكام المذهبية على مثل هذا الاختلاف غير مطلوب وغير معقول.

قال القاضي أبو بكر في كتابه أحكام القرآن «وفائدة الخلاف في ذلك الذي يتعلق بالأحكام أن قراءة الفاتحة ركن في الصلاة عند المالكية والشافعية خلافاً لأبي حنيفة. فتدخل البسملة في الاختلاف».

وهذا التفريع عندي غير موجه وغير مطلوب.

البسملة أنزلت في أول القرآن مقصودة، ثم كانت تنزل في أول كل سورة تبعاً لها، والمقصود أن يكون ابتداء كل سورة بذكر اسم الله. فلم تك منها. ولهذا أفردت في التلاوة والكتابة. أما التلاوة فكان النبي صلى الله عليه وسلم يقرؤها سراً ولا يجهر بها. فلا تخرج من القرآن وتهجر، ولا تشبه بالقرآن المقصود فتهجر. أما الكتابة فقد كتبت في المصاحف بين كل سورتين مفردة، بحيث تكون أقرب لما بعدها فتكون تبعا لها لا لما قبلها.

وكتب قبل فاتحة الكتاب في أول القرآن متصلة بها. فاحتمل أن تكون منها واحتمل أن لا تكون منها. بكلٍّ أخذ جماعة. والكل حق. يؤيد الثاني حديث قسمة الصلاة بين الله وبين عبده؛ لأن الفاتحة سبع آيات بالإجماع، ولم تذكر في هذا الحديث البسملة. بل ذكر ثلاث آيات أولها ثناء، وثلاث آيات أولها دعاء، والرابعة متوسطة ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾.

هذا هو القول الفصل في مسألة البسملة. وهو تأويل ما نقل في كتب الفقه عن الفقهاء وفي كتب التفاسير عن الأئمة. ولا لوم في هذه المسألة إلا على من حكى الاختلاف فيها، وصوره في أنها قرآن أو ليست بقرآن. وشأن كل إمام مذهب عندنا أجل من أن يمس شرف اجتهاده وكمال علمه تبعة كل فرع يفرعه على قوله مقلده أو راوي مذهبه.

٣) - كتاب الله إمامنا وقدوتنا. فافتتاحه بهذه الكلمة المباركة إرشاد لنا أن نفتتح بها كل أعمالنا. وهذه الكلمة المؤلفة من هذه الأسماء الأربعة كلمة إسلامية وسنة إسلامية مطلوبة بعينها. فيها معنى التبري عن حظوظ النفس، ومعنى استمداد القوة والعناية من رحمة الله وإحسانه، وفيها معنى الاعتماد على مشيئة الله وإذنه وتوقيعه وسلطانه.

٤) - معنى بسم الله الرحمن الرحيم في فاتحة الكتاب أن جميع ما يفصل في القرآن الكريم من الأحكام والآيات وغيرها هو لله ومن الله، ليس لأحد غير الله فيه شيء. وهذا المعنى من أهم المقاصد وهو أصل الرسالة الإسلامية.

٥) - التسمية بمعنى ذكر اسم الله عند ابتداء العمل سنة دينية. وأفعال الإنسان بالنسبة إليها ثلاثة أقسام: ١) قسم شرعت فيه التسمية. منه الوضوء والاغتسال ومنه تلاوة القرآن. ومنه كل عمل مباح ليس بعبادة كالأكل والشرب والقراءة والكتابة. ٢) قسم لم تشرع فيه التسمية. منه الصلاة والآذان والأذكار والدعاء والحج والعمرة لأن القربات بركة في نفسها. وتحرير ضابط لكل قسم من هذين عسير. فإن تلاوة القرآن قربة عظيمة وبركة شاملة شرعت فيه البسملة. والصلاة وهي أعظم قربة وأكبر بركة لم تشرع فيها البسملة. ٣) قسم كرهت فيه التسمية كالمحرمات ودنايا الأفعال؛ لأن

الغرض من التسمية حصول البركة في الفعل. والحرام وأمثاله لا يراد تكثيرها، ولأن التسمية فيها معنى الاعتماد على إذن الله وتوقيعه. فهي في الحرام إساءة أدب وطغيان.

٦) - عبارة التسمية في كل ما شرعت هي فيه: «**بسم الله الرحمن الرحيم**» إلا عند الذبح. فقد قيل إن ذكر الرحمة عند إيلام الحيوان غير مناسب وأن الأدب فيها الاكتفاء باسم الله.

وسيأتي إن شاء الله أن التسمية في زكاة الأكل أدب في وجوبه وعدمه خلاف. أما في زكاة النسك فأصل وركن.

٧) - الحمد لله رب العالمين: بدأ كتابه بالثناء على نفسه بأظهر أسمائه، وهو أهل للثناء عليه بجميع أسمائه الحسنى. والحمد والثناء حق له وحده استأثر بعزته له. وإليه يرجع الأمر كله. ولكن الإنسان له حظ كامل من الثناء على كبير أعماله، وله كفل كافل من الحمد على كماله. وذلك أن الله قد أنعم على الإنسان غاية الإنعام حتى جعله مظهراً لأسمائه فنال خالص حق الله حتى كان مسجوداً لملائكته. فينال خالص حق الله من الثناء والحمد، ويكون محموداً بالسنة خليقته. ولذلك كان الثناء على الإنسان بكبير أعماله والحمد عليه بنافع حسناته مشروعاً، والسعي وراء الثناء والمصالح شيمة كل إنسان صالح. وليس الرغبة في الثناء وكسب الفضائل من باب تزكية النفس التي نهى عنها القرآن الكريم بقوله: ﴿**فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى**﴾. بل تزكية النفس تنافي الرغبة في الثناء والفضائل. ولا يزكى نفسه إلا من يرغب عن الثناء والكمال. من رغب في الثناء ورغب في عظيم الأعمال فلا يزكى نفسه أبدا. ﴿**وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ**﴾. ومن له كبير همة وقوي عزيمة يسارع في الخيرات، ويسعى وراء الحسنات، ويستوجب أحق أجر له وهو الثناء عليه بما منه وبما له. والذكر الجميل أجل ما يرغب فيه

العاقل، وقد رغب فيه الأنبياء وكبار الأولياء. ورغبة الإنسان في الحياة طبيعته. والذكر الجميل هو الممكن له من الحياة الأبدية.

٨) – اختص نفسه في أول آيات كتابه بالحمد على الألوهية والربوبية فدل على أن لا إله في العالم إلا الله، وأن لا خالق ولا رب إلا هو. وتوحيد الله والإيمان به أول أصول الدين الإسلامي، وأعلاها وأهمها. ولذلك بدأ الكتاب به.

٩) – بدأ كتابه في أول آياته بالحمد على جلال الألوهية وجمال الربوبية وكمال الرحمة، فأفاد أن مقام الإنسانية عند عرش الله هو الإجلال والشكر وتمام الرغبة. وهذا عندنا هو الذي هدى الإنسان إلى فكر الديانة والعبادة. فالدين والإيمان سببه ما نشأ في وجدان الإنسان بمشاهدة جلال الله وعظمته في الكون، ومشاهدة كمال رحمته وعنايته في الوجود من الإجلال والشكر. وقد ظن ناس أن الذي بعث بالإنسان على فكرة الديانة والعبادة هو الضرورة والخوف، وأن الإنسان ما عبد من عبد إلا خوف عقوبته وما تقرب إلى أحد إلا اتقاء شره وعداوته. نعم، قد يكون هكذا ونحن لا ننكره ولا نلوم أحدا ذهب إليه. وقد نطقت آيات كثيرة أن الخوف قد يردعه عن الغي والطغيان. نعم، هذا قد يكون. إلا أن الدين القيم الذي فطر الله عليه الإنسان هو روح الإجلال والشكر الذي نفخ في الوجدان.

١٠) – قال رب العالمين فاستغرق وجمع جمع عاقل، فأفاد أن كل شيء في هذا الكون له حياة وله إدراك، وأن كل حيوان له نطق وعقل. وهذا نظر إسلامي أيده آيات، وسيظهر هذا لأهل البحث في الوجود والكائنات.

١١) – الرحمن الرحيم: أعاد عين في البسملة وذكر العالمين بينهما فأفاد أن العالم بين رحمة متقدمة ورحمة متأخرة. فالعالم أوَّله من رحمة، وأَوْله إلى الرحمة. فكل وجود من

وجود إلى وجود. وأفاد أن ما يبعث بالإنسان إلى العبادة هو الرحمة الإلهية التي صدر منها وتهديه إلى السعادة.

١٢) – مالك يوم الدين: يوم الدين يوم الجزاء يلقى فيه كل عامل جزاء عمله، ويوم الوفاء ينال فيه الإنسان غاية سعادته؛ فإن الإنسان قد خلقته العناية الإلهية للسعادة. ولم ينل الإنسان خالص السعادة في حياته الحاضرة. فلها يوم، يوم عظيم، ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾. فأفادت هذه الآية إثبات المعاد. وقد أجمعت عليه جميع الأمم.

١٣) – مالك بالألف عند عاصم ويعقوب والكسائي وخلف من الملك بكسر الميم. وهذه القراءة تفيد أن الملك يتعلق بالمعاني كتعلقه بالمنافع والأعيان.

١٤) – إياك نعبد وإياك نستعين: فصل الكناية وقدمها للحاضر. فأفاد وجوب اختصاص الاستعانة له كاختصاص العبادة به وحده. ولا يكون التوحيد إلا به. وخالص التوحيد هو الذي يرفع شأن المعتقد ويخلصه عن الذل ويطلق الإرادة ويحرر العزيمة فيكون المؤمن حراً خالصاً وسيداً كريماً لا يخضع إلا لله. وهو معنى قوله: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾.

١٥) – العبادة خضوع بالغ حد النهاية، ناشىء من شعور القلب عزة الله وجلاله واعتقاده بسلطان له لا نهاية له. وهذا الشعور هو روح كل عبادة شرعت. ولم تشرع عبادة في دين من الأديان في أي صورة كانت إلا لإحياء هذا الشعور في قلبه. وله تأثير عظيم في حياة الإنسان وبركة قوية في تقويم أخلاقه وتهذيب نفسه.

وللعبادة درجات: ١) عبادة رغبة في ثوابه ورهبة من عقابه، ٢) عبادة تشرف وتقرب إليه، ٣) عبادة خالصة لوجه الله لاستحقاقه الذاتي. وهذه أعلى الدرجات. وكلها مقبولة في نظر الشارع.

١٦) – كرر «إياك» تعليما لنا أن نجدد ذكره تعالى عند كل حاجة ولاختلاف جهة التوجه. فعند العبادة نتوجه إليه نفسه، وعند الاستعانة نتوجه إليه باسم من أسمائه، وسبب من أسبابه. فلاختلاف التعلق أعاد الكناية.

١٧) – أمرنا أن نخصه بالاستعانة وأن نستعينه ولا نستعين غيره. وقد أمرنا في آيات أخر بالتعاون، فقال: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾. فما معنى اختصاص الاستعانة به؟

وبيانه أن كل عمل يعمله الإنسان يتوقف هو وثمرته ونجاحه على حصول الأسباب التي اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون مؤدية إليه وعلى انتفاء الموانع التي من شأنها بمقتضى الحكمة أن تحول دونه. وقد مكن الله جل جلاله الإنسان بما آتاه من العلم والقوة من دفع بعض الموانع ومن كسب بعض الأسباب؛ وحجب عنه البعض الآخر. فأوجب علينا أن نقوم بما في استطاعتنا من ذلك، ونبذل في اتقان أعمالنا كل ما نستطيع من حول وقوة، وأن نتعاون ويساعد بعضنا بعضا على ذلك؛ وأوجب علينا أن نفوض الأمر في ما وراء كسبنا إلى القادر على كل شيء، ونلجأ إليه وحده، ونطلب المعونة المتممة للعمل والموصلة إلى ثمرته منه وحده دون سواه إذ لا يقدر على ما وراء الأسباب التي أوتيها كل البشر إلا الله. وهذا هو الاستعانة. وهي بهذا المعنى من تمام العبادة فإنها بهذا المعنى فزع والتجاء من القلب إلى الله وتعلق منه بالله. وهو روح العبادة. أما الاستعانة بالناس في كل ما هو في استطاعة الناس فإنما هي ضرب من استعمال الأسباب المسنونة. واستعمال الأسباب في كل عمل يحتاج إليها، واتخاذ الآلات

في كل صناعة تحتاج إليها أمر مطلوب واجب بحكم الطبيعة والشريعة. فالاستعانة لا تغني عن التسبب بل توجبه. والتسبب لا ينافيها. بل الإنسان وإن استعمل كل الأسباب لا يستغنى عن الله.

فالشرع قد فرض على الإنسان أن يستعين بالله، كما فرض عليه أن يستعمل الأسباب الطبيعية العادية وأن يتسبب بها؛ ونهاه أن يستعين بغير الله كما نهاه أن يتوسل ويتسبب بغير الأسباب العادية.

ثم إن الفرق بين معنى نستعينه وبين معنى نستعين به عظيم. والحصر في هذه الآية إنما جاء في المعنى الأول لا في المعنى الثاني. أما المعنى الثاني فقد جاء في القرآن في غير حصر. مثل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ ﴾، ومثل ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾.

١٨) – أمرنا أن نتخذه معينا ونصيرا في كل أعمالنا. والعاقل لا يطلب الإعانة إلا بعد أن يستفرغ تمام القوة بالاستقلال وإلا بعد أن يبذل غاية طاقته. فأرشدنا إلى أن نجتهد في الأعمال النافعة وإتقانها ما استطعنا. وهذا أساس السعادة في الحياة الحاضرة ومرقاة السعادة في الحياة الآتية.

١٩) – اهدنا الصراط المستقيم: والهداية لها أنواع؛

أ) هداية يشترك فيها كل حي وكل موجود. ذكرت في قوله: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾. وفي قوله: ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾. فكل موجود له هداية إلهية تليق بشأنه. فاهتدت الأرجل للمشي؛ والأيدي للبطش والأعمال؛ واللسان للكلام، والأذن للاستماع؛ والعين لكشف المرئيات؛ وكل الحواس

والمشاعر وكل الأعضاء لما خلقت له. وهذه الهداية في الحيوان هي الوجدان الطبيعي والإلهام الفطري. فالطفل ساعة يولد يشعر بألم الجوع فيصرخ طالبا للغذاء؛ وعند ما يصل الثدي إلى فيه يلهم التقامه وامتصاصه. وما في الحيوان من اهتداء حواسه ومشاعره قد يكون أكمل مما للإنسان. فإن الله قد من على الحيوان من الإلهام والوجدان ما يستغني به في معاشه عن غيره.

ب) هداية العقل: خلق الله الحيوان تاماً مستوفياً جميع ما يمكن له من الكمال. فهيأ له ساعة يولد جميع ما يحتاج هو إليه مدة حياته، وهداه إلى جميع ما يصلح له، وعرفه وجه الانتفاع بما له فيه منفعة، ووجه الهرب مما له فيه من ضرر. فمنحه من الحواس والإلهام كل ما يكفيه في معاشه ساعة يولد. أما الإنسان فقد خلق مكتسبا مترقيا مراتب الكمال، وخلق مدنيا يعيش مجتمعا أمة واحدة. فاقتضت العناية الإلهية في نظام المجتمع الإنساني أن يخلق الإنسان ضعيفا في أول نشأته يحتاج إلى حضانة غيره سنيناً، وأن لا يتوفر له من الإلهام والقوة والاستعداد ما يستغني به عن غيره في حياته، وأن يمن عليه بهداية عالية والمشاعر وينتظم به الاجتماع ويترقى به مراتب الكمال.

ج) هداية الدين. والإنسان يحتاج إليها. فإن العقل قد يخطئ كما تخطئ الحواس. وقد يهمل الإنسان استخدام حواسه وعقله فيما فيه سعادته الشخصية والنوعية والاجتماعية. ونظام الاجتماع قد يختل بسبب أن العقول تختلف والأهواء تتضارب. والاعتقاد بالله وبالحياة الباقية الأبدية فطري للإنسان قد أودع في غريزته. والعقل قد لا يستطيع ولا يهتدي إلى معرفة ما يجب عليه لله، وما فيه سعادته في الحياة الأبدية. فاحتاج الإنسان إلى هداية الدين. وهي أقسام:

د) هداية البيان والتعريف والدلالة. مثل قوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾. ومثل قوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾. وهذه الهداية لا تستلزم الاهتداء. منها قوله :﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ .

و) هداية التوفيق. وهذه هي الهداية المستلزمة للاهتداء الموصلة. منها قوله: ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء﴾. وقوله:﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾. ومنها قوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾. ومنها قوله:﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ .

ز) هداية المقصد وهداية الغاية. وهي غاية الهدايات السابقة، وثمرتها المطلوبة منها. منها قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ . وقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ﴾.

٢٠) – ثم إن الإنسان لا يحصل له تمام الاهتداء إلا بعد حصول أمور هو يحتاج إليها:

أ) عمله في جميع ما يأتيه كونه محبوبا لله مرضياً له، حتى يؤثره، وفي جميع ما يذره كونه غير محبوب له حتى يجتنبه. فإن نقص من العلم شيء نقص من الهداية بقدره.

ب) أن يكون مريدا جميع ما يحب الله أن يفعله عازما عليه، وأن يكون مريدا لترك جميع ما نهى الله عنه عازما على تركه مجملا ومفصلا. فإن نقص من فعله شيء نقص من الهداية بقدره.

ج) أن يكون قائما به فعلا وتركا على الكمال. فإن نقص من فعله شيء نقص من الهداية بقدره.

د) أن يهتدي إلى تفاصيلها.

هـ) أن يهتدي إلى جميع الوجوه. فإن الإنسان قد يهتدي إلى شيء من وجه دون وجه. فلا يكون اهتداؤه تاما.

و) أن يهتدي إلى الدوام عليه والاستمرار فيه والثبات. والإنسان قد يهتدي إلى شيء تفصيلا من جميع الوجوه ويبقى محتاجا إلى الاستمرار.

ز) أن يتدارك أموراً وقعت منه على غير جهة الاستقامة. وتداركها بالتوبة منها وتبديلها بغيرها. وهذا السابع يتعلق بالماضي. والستة السابقة بها يعزم عليه فعلا وتركا.

٢١) – الصراط المستقيم ما كان طريقاً مسلوكاً سهلاً واسعاً مستقيماً موصلاً إلى المقصد، إذا سلكته وثبت عزمك عليه وصلت إلى الغاية ـ غاية حياتك وكمال سعادتك وصلاح كل أحوالك. فالصراط المستقيم بالنسبة إلى كل إنسان ما يوصله إلى أصلح أحواله في أدب حياته؛ وبالنسبة إلى كل الإنسانية ما يجعلها على أعدل أحوالها الاجتماعية وأحسن هيئتها المدنية.

٢٢) – الهداية ترد في الكلام على وجوه:

أ) تتعدى بحرف يفيد معنى الانتهاء إلى الغاية. والغاية هي الطريق أو المقصد الذي يوصلك إليه الطريق. وذلك إذا أريد بها معنى الإيصال إلى الغاية ومعنى الاتصال بها. مثل قوله: ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. والغاية في المثال الطريق. ومثل قوله ﴿وأهديك إلى ربك﴾، والغاية هي المقصد.

ب) تتعدى بحرف يفيد معنى الاختصاص والتعيين. فإذا قلت هديته له أفاد معنى قولك هيأته له وجعلته له وادخرته. مثل قوله: ﴿ وَقَالُواْ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾.

ج) تتعدى بلا توسط حرف إذا أريد بها معنى البيان والتعريف والإلهام ومعنى التسيير في الطريق والإيصال إلى المقصد. فإذا أريد بها المعنى الجامع لهذه المراتب كلها عديت بنفسها إذ لو عديت بحرف لتعين معناها وتخصص على حسب معنى الحرف.

٢٣) – ثم الهداية، لاشتمالها على معنى التعليم والتربية، تقتضي شيئين: ١) تعريفا وتعليما من الهادي المعلم. ٢) تعرفا وقبولا من المهدي المتعلم. ولا تتم الهداية ولا تثمر إلا بهما. فمتى حصل البذل من الهادي ولم يكن في المهدي قبول صح أن يقال:﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ اعتبارا بعدم القبول. وصح أن يقال ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ اعتبارا بالبذل. فالقبول من تمام الهداية.

٢٤) – إذا تبينت كل ما سردناه بالأرقام الخمسة الأخيرة عرفت قولنا ﴿**إهدنا الصراط المستقيم**﴾. أجمع دعوة وأتمها ليس للإنسان دعاء أنفع له منها، ولا هو إلى شيء أحوج منه إليها. وإنه طلب أصل الهداية وفروعها لا دعاء تثبيت على ما حصل قبل وإدامة عليه. وما كانت هذه الدعوة أول دعاء في القرآن إلا لأن حاجتنا إليه أشد من حاجتنا إلى كل شيء سواه.

والهداية في الآية تشتمل اهتداء الإنسان بعقله في كل أفكاره وآرائه، وباختياره في جميع أعماله إلى أصلح أحواله وأنفع آماله، وبحواسه في حركاته وحاجاته، وتحتوي على اهتداء الإنسانية إلى أعدل حالاتها الاجتماعية. والإنسان في اهتدائه إلى مقصد من مقاصده يحتاج إلى علم وافر وإرادة ثابتة وقدرة كافية، وإلى توفر أسباب وارتفاع موانع. وما يجهل الإنسان من منافعه أضعاف ما يعلمه، وما لا يريده من رشده ويغفل

عنه أكثر مما يريده ويتبينه عليه. وهو في أكثر أحيانه عرضة للخطأ والضلال، وعنده من أهوائه الغالبة وأمياله الدافعة ما ينحرف به عن سبيل الحق وجهة المنافع، ويورده موارد التهلكة، ويقيد عقله ويسترق اختياره.

فالطالب في ﴿إهدانا الصراط المستقيم﴾ طلب أصل الهداية وتفاصيلها علما وعملا واهتداء إليها وثباتا عليها. والإنسان في جميع أنفاسه يحتاج إلى الهداية في جميع ما يأتيه ويذره أصلا وتفصيلا.

فدعاء الفاتحة أنفع دعوة جامعة بالغة. ولذا جعل ركنا في كل ركعة من كل صلاة مكتوبة ونافلة. والمطلوب أن يتلوها تلاوة طلب وافتقار وتلاوة مستعين. وذلك هو الذي يجيبه الحق إذا سأله. ولا يكون الإنسان مقيما للصلاة إلا إذا تلا الفاتحة تلاوة ثناء وتلاوة استعانة ودعاء.﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ﴾.

٢٥) – روى الأئمة عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قال الله عز وجل: (**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين. ولعبدي ما سأل. فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين قال الله: حمدني عبدي. وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله: أثنى علي عبدي. فإذا قال: مالك يوم الدين قال مجدني عبدي. وإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل. فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل**).

٢٦) – قسم الصلاة بينه وبين عبده، ولم يذكر في بيان قسمتها إلا الفاتحة فهي ركن الصلاة وروحها إذا تليت تلاوة ثناء ودعاء. ومن واجب الأدب أن يتأهب المصلي

لمناجاة ربه، ويجعله نصب عينيه في قبلته. فإذا قال المصلي الحمد لله رب العالمين ينبغي له أن يلقي السمع ويقف أدبا مع الحق حتى يقول الله حمدني عبدي. وهكذا في كل آية منها. فإنه من حسن الأدب ترك الكلام والإصغاء لما يرد عليك تناجيه، وإذا شاركته في الكلام فقد أسأت الأدب.

٢٧) – صراط الذين أنعمت عليهم: من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من الأمم السالفة. أجمل في الفاتحة ما فصله في القرآن الكريم توجيها للأبصار إلى الاعتبار بأحوال الأمم وحسن الاقتداء بأخيارها في ما كان سبب السعادة والتمكن في الأرض.

أضاف الصراط إلى الاسم الموصول بالأنعام فأفادت الإضافة ثلاث فوائد:
أ) بيان أن الإنعام سببه هو الاهتداء إلى الصراط المستقيم. فبه نال الإنعام من أنعم الله عليه.

ب) تطهير القلب عن ذل التقليد، واستشعار العلم بأن من هدى إلى هذا الصراط فقد أنعم الله عليه. فالسائل بسؤاله الهداية إليه مستشعر طلب الإنعام من الله عليه.

ج) بيان أن المطلوب هو الهداية إلى جميع تفاصيل الطرق التي سلكها كل من أنعم الله عليه من الأنبياء والشهداء والأولياء والأمم المتمدنة. وهذا أجل مطلوب لا يدع شيئاً من خير علمي واجتماعي وديني.

٢٨) – أمرنا أن نطلب الهداية إلى الصراط المستقيم. ومنه الإسلام، أو هو الإسلام. ثم قال إن الصراط المستقيم هو صراط من تقدم علينا من الأمم السابقة. فأفاد أن الإسلام هو الدين الذي أوحاه الله إلى جميع أنبيائه وجميع رسله، وأن دين الله في جميع الأمم واحد، وأن الاعتقاد بالله وأنبيائه، والإيمان بوجوب ترك الشرور ووجوب فعل

الخيرات، والإيمان بوجوب الأخذ بالأخلاق الفاضلة والآداب العالية مستو في الجميع وإلا لما كانت الاستقامة طريقا لمن بذل الله عليه أنعامه.

فالإسلام دين قد جمع من جميع الأديان ما حسن منها وما يفيد في تحسين نظام المجتمع الإنساني، وقد أتى بأحكام وإرشادات لم تكن في شرائع سابقة، وبنى العقائد على براهين عقلية، والأحكام الأدبية والعملية على قواعد المصالح والمنافع ودفع المضار.

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ﴾ (الشورى ـ ١١)

﴿قُولُواْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾.

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾.

٢٩) أثنى على من تقدمنا من الأمم السالفة ممن سلك طريق الاستقامة، وبذل الله عليه أنعامه، ليرشدنا إلى النظر في ما كانت عليه والاعتبار بما صارت إليه لنقتدي بها في القيام على أصول الخير.

٣٠) – الإيمان بأنبياء جميع الأديان السابقة، والثناء على كل من استقام في طريق الحياة من الأمم السالفة أصل من أصول الإسلام عظيم، وأحسن وسيلة في دعوة الناس إلى القرآن الحكيم. وهو أحسن سياسة في إعلاء كلمة الإسلام، وبث التعاليم.

٣١) – ذكر الإنعام وأسنده إلى فاعله، ولما ذكر الغضب بناه للمفعول، ولم يذكر فاعله. وأدب القرآن أن أفعال الإحسان والرحمة والجود والعزة تسند إلى الله عز وجل، وأما أفعال العدل والجزاء والعقاب فتحذف فواعلها وتبنى على بناء المجهول. تأدبا في الخطاب. منه قول إبراهيم:﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾. ومنه قول الجن :﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ . وهذا الأسلوب ملتزم مطرد في كل القرآن، سيأتي بيانه في آيات. وأدب البيان ونزاهة اللسان أصل مطلوب في الإسلام.

٣٢) – الإنعام بالهداية يستوجب الشكر. وأول الشكر وأصله الذكر. ولهذا ذكر الإنعام وأسنده إلى الله. فهذا الإسناد تضمن الأصلين: ١) الشكر، ٢) الذكر. مثل قوله:﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ ﴾.

٣٣) – غير المغضوب عليهم ولا الضالين: الناس بالنسبة إلى الهداية ثلاث طوائف: ١) من عرف الحق وأتبعه. فهذا هو الذي أنعم الله عليه. ٢) من عرف الحق فأعرض عنه ونبذه وراء ظهره وآثر غيره. وهذا هو الذي غضب الله عليه. ٣) من جهل الحق وغفل عنه. وهذا هو الضال الذي تاه وتحير لوقوعه في عماية لا يهتدى فيها إلى الحق.

٣٤) – والضال على مراتب متفاوتة: ١) من لم تبلغه الدعوة أو بلغته على وجه لا يسوق إلى النظر، فلم يتوافر عنده من أنواع الهداية سوى ما يحصل له بحواسه وعقله. وحرم رشد الدين، ونعني بالدين ما يفيض على أهله من روح الحياة ما به يسعد في الدنيا والآخرة. ٢) من بلغته الدعوة فبعثته على النظر، فساق همته إليها واستفرغ جهده فيها وانقضى عمره وهو في الطلب، ولكن لم يوفق إلى الحق والاعتقاد بما دعي إليه. ٣) من بلغته الدعوة وآمن بها بدون نظر في أدلتها ولا وقوف على

أصولها ثم اتبع هواه في فهم ما جاءت به في أصول العقيدة. وبهذا النوع من الضلال حدثت الفتن المدهشة في كل الأديان، وله انفجر أكثر الفتن في الإسلام. ٤) من آمن بالدعوة ثم ضل ضلالا في الأعمال وذلك بأن حرف الأحكام عما وضعت هي له. كالخطأ في فهم معنى الصلاة وكالغفلة عن روح العبادات وكالانحراف عن مقصد الشارع في المعاملات.

٣٥) – إذا ضلت الأمة عن سواء السبيل وطريق الحق، ولعب الباطل بأهوائها ففسدت أخلاقها واعتلت أعمالها بالانحلال اختيارها واختلال قوى إدراكها حقت عليها كلمة العذاب، ووقعت في الشقاء لا محالة: يسلط الله عليها من يستعبدها ويستأثر بشؤونها. عقوبة من الله عاجلة، لا بد نازلة. لا ينفع فيها إيمان ولا توبة، ولا يكون فيها عفو من الله ولا يؤخذ فدية، ولا يؤخر لها العذاب يوم الحساب. ﴿سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾. وإذا تمادى بها الغي والفساد في نظام الاجتماع وآداب الحياة وصل بها إلى الهلاك وعفا اسمها من الوجود. ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾.

ولم يوجد في تاريخ الإنسانية أمة فسد نظامها الاجتماعي واختل أدبها الحيوي ثم نجت من عذاب الله ﴿إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾.

وقصة قوم يونس شاذة في سنة الله القاهرة، نادرة من جمهور قوانين الاجتماع نافرة. ذكرها لنا القرآن عبرة تدعو عقولنا إلى النظر في وجوه نجاة أمة فسد نظامها الاجتماعي واختل أدبها الحيوي. والقصة خطيرة لها شأن في مسألة انتباه الأمة بعد رقودها وهبوطها إلى الدرك الأسفل من الذل والمهانة. وسيأتي بيانها إذا حل وقته إن شاء الله.

٣٦) – هذا الذي بيناه من سنة الله في ضلال الأمة وعقابها بسببه. أما ضلال الفرد فلم تجر سنة الله بوجوب العقوبة لكل من ضل في هذه الحياة الدنيا. فقد يطغى الإنسان ويعيش عيشاً رغداً، ثم يدركه الموت قبل أن يذوق الماء أو يمسه بؤس وشدة. الفرد الضال في حياته مدة قد يهتدي بعد. وله توبة مقبولة، وله عفو مبذول من الله. أما الأمة، إذا ضلت، فإن عقوبتها عاجلة، وإن كانت لتجد حسابها ونصيبها أيضاً في الآخرة.

٣٧) – قدمنا معاني الهداية، وأن الناس بالنسبة إليها ثلاث شيع، وإن الهدى والسعادة والفلاح لا سبيل لنيلها إلا بمعرفة الحق وإرادته وإيثاره على غيره، وقلنا إن الجهل يمنع الإنسان من علم الحق ومن معرفة طريقه، وإن ألغى والعناد يمنعه عن إرادته وإيثاره على غيره، وبينا معاني الضلال وتأثيره في حياة الأمة وعلى روح الفرد، وقلنا أن من غفل عن الحق وتاه عن طريقه هو الضال، وأن من عرف الحق ونبذه وراء ظهره هو المغضوب عليه. إذا عرفت كل هذه إجمالاً وتفصيلاً اهتديت إلى معنى ﴿ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ ﴾، وأيقنت أن دعاء الفاتحة أجمع دعاء وأوجزه؛ وأن الإنسان أحوج شيء إلى أن يسأل الله في كل أنفاسه أن يهديه إلى الصراط المستقيم وإلى طريق الحق تعريفاً وبياناً وإرشاداً وتوفيقاً وإعانةً بأن يعلمه أولاً ثم يجعله مريداً له قاصداً لاتباعه. حتى لا يكون ممن نبذ الحق وتركه على عمد وعلم فغضب الله عليه؛ ولا يكون ممن عدل عن الحق وتركه عن غفلة وخطأ فضل عن سواء السبيل ولم يهتد إليه عن جهل وقصور علم.

فالهداية لا توجد ولا يمكن أن توجد إلا بالعلم، وهو اهتداء العقل إلى معرفة الحق، وإلا بصحة الإرادة وحسن الاختيار، وهو اهتداء الإرادة والاختيار إلى الأخذ بالحق. فلها ركنان: ١) كمال العلم ٢) حسن الإرادة.

٣٨) – قلنا إن المغضوب عليه هو كل من عرف الحق ثم نبذه وراء ظهره عمداً وعناداً. يهودياً كان أو نصرانياً، مجوسياً كان أو مسلماً. وقلنا إن الضال هو كل من لم يهتد إلى الحق وضل عن سواء السبيل بجهله وتحيره وغفلته. مسلماً كان أو مجوسياً، يهودياً كان أو نصرانياً.

وظهر بما قلنا أن كل مغضوب عليه ضال؛ وليس كل من ضل عن سواء السبيل ودرك الحق مغضوبا عليه. فإن الجهل قد يكون عذرا يلحقه عفو من الله، فيغفر له ويهديه ولا يغضب عليه.

٣٩) – وقد اشتهر تفسير من أنعم الله عليه بالمسلم، وتفسير المغضوب عليه باليهودي، والضال بالنصراني. فإن صح فهو تفسير على طريق بيان المعنى ببعض جزئياته. والوجه فيه أن أكثر ما ورد في ذم اليهود غضب الله؛ وفي النصارى الضلال.

وقد ثبت عند أهل العلم أن الإنسان له عقل وله إحساس وله اختيار؛ وأن هذه الثلاثة هي مبادئ أفكاره وكل أعماله. فمن جمع بين معرفة الحق لذاته وبين اختيار الخير للعمل له فهو المهتدي الذي أنعم الله عليه. ويقابله من أخل بأحدهما. فمن أخل بعقله وإحساسه فجهل الحق وغفل عنه فهو جاهل ضال. ومن أخل باختياره فترك الحق والخير واختار الباطل والشر فهو مغضوب عليه.

٤٠) – الضلال وقوف تحير أو سلوك طريق لا يوصل إلى الخير. وله أسباب:

أ) الغفلة مثل إيثار اللذات الحسية على اللذات العالية الروحانية،

ب) الغرور مثل سكون النفس إلى ما تهواه ولا خير فيه،

ج) الشبهة، مثل كون النقد خيرا من النسيئة. فيختار النقد العاجل القليل على النسيئة الكثيرة النافعة. ومن الشبهات ينشأ أكثر ضلال الناس.

د) غلبة هوى على الإنسان يضيق به صدره عن الخير وينشرح للباطل والشر. وغلبة الهوى أقوى سائق وأشد دافع للإنسان إلى الشرور والباطل والمفاسد. فإن استمر الهوى على قلب الإنسان أورثه رينا ثم غشاوة، ثم طبعا، ثم ختما، ثم قفلا، ثم موت القلب.

٤١) – فالضلال؛

أ) ضلال العقل، سببه الجهل والغفلة والشبهة وغلبة هوى.

ب) ضلال اختيار وضلال إرادة. بأن يختار الإنسان الباطل والشر بعد علمه الحق والخير عنادا واستكبارا، فهو الذي غضب الله عليه. أما من اختار الباطل والشر عن جهل وغفلة أو شبهة فالعزيز الحكيم لا يغضب عليه. ولذا قلنا إن كل مغضوب عليه ضال؛ وليس كل ضال مغضوبا عليه. والحكيم لا يغضب على الجاهل ولا على من قامت عنده شبهة حجبت عنه الحق.

٤٢) – ضلال الاختيار أغلظ، وتأثيره في شقاء الفرد أنفذ، وهو عن العذر والعفو أبعد. فالاهتمام بدفعه ورفعه، والتحذير منه أحق وأوجب. ولذا قدم المغضوب عليه في الذكر على الضال.

٤٣) – قال غير المغضوب عليهم ولم يقل لا المغضوب عليهم ليكون الكلام خارجا مخرج النعت لا العطف. فإن النعت هاهنا أبلغ، وإفادته أزيد. فإن العطف لا يفيد أكثر من نفي إضافة الصراط إلى المغضوب عليهم. والنعت يفيد ما يفيده العطف، ويفيد الثناء على الموصوف بكونه غير مغضوب عليه. ويستفاد منه أن الانعام المطلق ينافي الغضب والضلال، فلا يثبت لمغضوب عليه ولا لضال.

٤٤) – زاد لا فقال ولا الضالين ليفيد المغايرة بين النوعين وبين كل نوع بمفرده. ولو قال غير المغضوب عليهم والضالين لا وهم أن المراد ما غاير المجموع المركب لا ما غاير كل نوع بمفرده وليرفع احتمال كون الضالين وصف المغضوب عليهم فإن العطف قد يدخل في عطف الأوصاف بعضها على بعض. وتعاطف الأوصاف في القرآن كثير. مثل ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾.

٤٥) – قال اهدنا الصراط المستقيم، ثم أبدل فقال صراط الذين أنعمت عليهم. والبدل عند النحاة في حكم تكرير العامل، والمبدل في حكم التنحية. وليس معنى هذا القول طرح المبدل من البين بالمرة. بل معناه أن النسبة إلى المتبوع تمهيد وتوطئة للتابع. فإن التابع يفيد التذكير والتوكيد ويفيد تقوية النسبة، ويفيد التفسير بعد الإبهام. وهذا كما إذا دللت إنسانا على طريق لا يعرفه وأردت توكيد الدلالة، وتحريضه على لزومه وأن لا يفارقه تقول له «هذا هو الطريق الموصل إلى مقصودك»، ثم تزيد ذلك عنده توكيدا وتقوية فتقول «هو الذي سلكه الناس وأهل النجاة قبلك.» فإن النفوس قد جبلت على التأسي والمتابعة. فإذا ذكر لها تتأسى هي به في سلوكها أنست واقتحمتها.

٤٦) – جمع الضمائر ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾. وكل أدعية القرآن الكريم جاء على هذا الأسلوب. مثل ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً

﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. لأن الفرد داخل في الجمع، ولأن اهتداء الإنسانية إلى أعدل أحوالها الاجتماعية وإلى سعادتها الممكنة أنفع للإنسان من اهتدائه وحده. والإنسان أحوج إلى اهتداء الجمع منه إلى اهتداء نفسه. فإن الفرد لا يكون عزيزا إذا ذل قومه، ولا يكون سعيدا إذا شقي جمعه، ولا يكون مهتديا إذا ضل حزبه. ولأن ضلال الأمة وفساد نظامها الاجتماعي يوجب هلاكها ويوجب شقاء الفرد. فاهتداء الجمع وانتظام الاجتماع أصل في اهتداء الفرد وسعادته. ولأن المقام مقام ثناء وعبودية واستعانة فالجمع يتضمن من الثناء بسعة المجد وكثرة العبيد وعظمة الملك ما لا يتضمنه الأفراد.

٤٧) – قدمنا في الفقه الأول أن مطالب القرآن الكريم ستة وأن فاتحة الكتاب قد أجملت كل هذه المطالب العالية إجمالا حسنا مفيدا على الإيجاز. ثم ذكرنا في تفسير آياتها السبع من بعض ما تفيده هذه الآيات الكريمة ما يظهر به صدق قولنا. سميت فاتحة الكتاب؛ لأنها قد فتحت جميع مطالب الكتاب وجميع خزائنه. فهي أم القرآن، جمعت جميع ما فيه. وقد صح في فضلها حديثان:

أ) الحديث الذي قدمناه في الفقه «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي.»

ب) حديث أبي بن كعب «لأعلمنك سورة ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلها.»

٤٨) – آمين ـ ليس من القرآن بالإجماع، ولم يكتب في مصحف من المصاحف وهو كلمة دينية كانت في الأمم السابقة، وضعت موضع الدعاء اختصارا. في كلمة ذات بركة شاملة، ولها في قلب المؤمن أثر مبارك، يحسن في مثلها التنافس. وهذا معنى ما روي عن ابن عباس أنه قال: «ما حسدكم أهل الكتاب على شيء ما حسدوكم على قولكم آمين.»

وهي كلمة فيها   إلى الله ودوام الافتقار إليه. وفيها معنى طلب الإجابة. فإذا خرجت من قلب مؤمن أشبع بمعاني الفاتحة فإن الله يجيب ويستجيب.

سورة البقرة

٤٩) – سورة البقرة أعظم سورة في القرآن، وأكثرها جمعاً لبراهين الدين والأحكام. ولعظيم الفقه فيها، أقام عبد الله بن عمر ثمان سنين يتعلمها.

سميت بها لأنها أظهر حكاية وأغرب قصة لن تذكر في غيرها. وفي قصتها أمور تدعو الباحث المتفكر إلى النظر فيها والاهتداء بها إليها:

أ) منها روح الأمة في آدابها الشخصية والاجتماعية والدينية.

ب) ومنها أن بين حوادث الطبيعة صلة وارتباطا يخفى على الناس في امتداد العصور، لم يظهر ويهتدي إليه الإنسان ببركة المصادفة، أو ببركة أعمال يعملها الإنسان في تجاربه. فإن «حياة القتيل بعد ضربه ببعض بقرة عوان لا فارض ولا بكر، لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث، مسلمة لا شية فيها صفراء فاقع لونها تسر الناظرين» مثال قد آمنا بصدق حاكيه، يدل على أن حوادث الطبيعة إذا ألفت تأليفاً صناعياً، أو تألفت وترتبت ترتيباً بالمصادفة تلد حوادث أخر طبيعية، في ظاهر ارتباطها غرابة، يراها الناس خرق عادة. وسيأتي بعض ما في القصة.

وقد صح عن ابن مسعود: «هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة.» وثبتت أسماء جميع السور في الأحاديث والآثار. ولم يكتب اسم سورة في مصحف من مصاحف الصحابة ولا في المصاحف العثمانية. قال الإمام الداني:" «والناس في جميع الأمصار من لدن التابعين إلى وقتنا هذا على التحريض في الشكل والنقط في أمهات

المصاحف وغيرها، ولا يرون بأسا برسم فواتح السور وعدد آياتها، ورسم الخموس والعشور في موضعها.»

٥٠) – ألف. لام. ميم: بدأ القرآن تسعا وعشرين من سوره بأسامي حروف التهجي الأربعة عشر. وهي آية تامة في العد الكوفي. إلا إذا كان فيها (را) مثل (ألف لام ميم را). وإلا إذا كان اسم حرف واحد، مثل (قاف، صاد، نون). وإلا (طا سين) أول سورة النمل. قال الإمام الشاطبي في كتاب له سماه «ناظمة الزهر» وقد شرحناها شرحا جليلاً وجيزاً:

وهذه الأسامي في أوائل السور كتبت كلها في كل المصاحف بصورة مسمياتها لا بصورة الأسامي. والتلاوة بالأسامي. وكلها عند الاجتماع كتبت متصلة. إلا أول الشورى، فقد كتبت حم منفصلة عن (عسق) فعدهما الكوفي لذلك آيتين.

ثم إن القرآن الكريم قد نطق وقال قولاً بليغا إن فيه آيات متشابهات لا يعلم تأويلها إلا الله. وهذه المتشابهات هي أسامي الحروف في أوائل السور فقط، أو هذه الأسامي من المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله. ولا ثالث لهذين الاحتمالين. والاحتمال الأول عندي أوجه وأقرب. لما سيأتي في أول سورة آل عمران.

٥١) – أوَّل جماعة من أهل العلم قالوا بأن: أسامي الحروف في أوائل السور تأويلات لا يأتي بها فائدة يعتد بها في البلاغة والجزالة والإعجاز، وكلها ناشئة من تخمين طفيف ليس له أساس. فقيل إنها مفاتح الأسماء الإلهية مشتقة من أولها أو آخرها. وقيل إنها أخذت من كلمات جملة أريد بها معناها مثل أنا الله أعلم. وقيل إنها أقسام أقسم الله بها. وقيل إنها حروف حساب أريد بها أعمار أمة وآجالها. وكل هذه تخمينات تركها أفضل وإهمالها أسلم.

٥٢) – قد اخترنا أن أسامي الحروف في أوائل السور متشابهة. وقلنا ليس في القرآن تشابه بالمعنى المعروف عند أهل الأصول إلا فيها. قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾. فإذا لم يعلم تأويله أحد، ولم يرد قائله به الإفادة، فما الوجه في نزوله في كتاب نزل بلسان عربي مبين؟

ولعل الوجه في نزول المتشابه الذي لم يقصد به الإبانة في القرآن الكريم أن عرش الوجود وعالم الكون فيه أشياء وحوادث وقوى ظاهرة لكل أحد، وفيه قوانين وقوى لا تظهر إلا لأهل العلم، وفيه كمالات وقوانين وأسرار خفية لا يهتدي إليها الإنسان إلا بعد تواتر الدهور وتوالي العصور ببركة اجتهاد مجتهد وسعي مكتشف؛ وإن فيه أحوالا وكمالات لا ينالها الإنسان بعقله واجتهاده وتعلمه، بل بهداية الله وفتحه فقط. فإن الجود الإلهي، وإن بذل كل شيء لأهله وقابله، إلا أن جلال الله وعزته قد استأثر لنفسه أشياء لم يجعل لها سببا إلا جوده، ولم يجعل لنزولها باباً إلا عزته. وما ينزل من باب العزة لا يناله الإنسان لا باجتهاده وعقله ولا بتعلمه وحيلته. ولو كان له سبب غير جوده، أو باب غير باب عزته ولم يتصف العزيز بالعزة.

فلإرشاد عقل الإنسان إلى هذه الحقيقة البالغة أنزل الله في فواتح سور القرآن أسامي حروف لا يعلم ما أريد بها إلا ببيان قائلها. فإن بين فمعانيها سهلة، وإلا فلا سبيل لكشفها. وهذا فيه تأديب للإنسان بليغ، وتعظيم لله عظيم.

ولهذا جعل التشابه في أسامي حروف المباني ولم يجعله في جمل تدل على المعاني. فإن معنى الجملة إن كان محجوبا عن العقل فإما لعجزه وقصوره وإما لإشكال المعنى وخفائه. وليس في هذا ما يليق بشأن الله وحكمته وعزته وجلاله. وفيه خرق لأصل

عظيم من أنزل الكلام للإبانة والإفادة. والخطاب بكلام لا يفهم معناه السامع مستعبد في قانون البلاغة والجزالة.

٥٣) – ذكرنا أن جلال الله وعزته قد استأثر لنفسه أشياء. ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾. وإن عالم الوجود فيه خفايا محجوبة بحجاب الجلال لا ينالها الإنسان إلا بالله وفتحه. ﴿مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. ونريد إلا أن نتوسع في الكلام استطرادا وتخلصا من فائدة إلى مثلها.

فنقول قد اختلف أهل العلم في مسألة «هل النبوة مكتسبة؟» قالت الفلاسفة إنها قد تكون أصلا. وهذا هو الحق والصواب؛ لأن فيض النبوة والوحي لا ينزل إلا من باب العزة، فلا يصل إليها الإنسان بالتعمل، ولأن النبوة والوحي لا ينزل إلا من باب العزة، فلا يصل إليها الإنسان بالتعمل، ولأن المكتسب إنما هو الوصول إلى الباب. وأما ما وراء الباب فليس من كسبه، ولا علم للواصل إليه هل يفتح الباب بين يديه.

٥٤) – أورد في فواتح السور من أسامي الحروف العربية، وهي ثمانية وعشرون، أربعة منها، نصفها سواء. فكان هذا للدلالة على أن خفايا الوجود، والأشياء التي استأثرها الله لعزته وجلاله لا تقل عن ظواهر عالم الوجود، وعن الأشياء التي بذلها للناس برحمته وجماله. وجعل حروف المباني في أوائل السور مختلفة الأعداد من واحد إلى خمسة. ولعل المناسبة أن أصول الأبنية في اللغة العربية حرف وحرفان إلى خمسة.

والمقام فيه سعة، وللفكر فيها مجال.

٥٥) – ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾: أدب الكلام وروح تأثيره في نفس السامع أن يكون جزلا في بلاغته، جميلا رائقا في إفادته، حكيما شائقا في دعوته، يلقي الهيبة والخشوع في روح السامع، والقناعة الميل والانجذاب في قلبه. حتى يكون الكلام جزلا مفيدا مؤثرا، وقلب الإنسان حاضرا قابلا واعيا متأثرا. فلهذا بدأ القرآن أعظم سوره، سورة أحكامه وتعاليمه بهذا الكلام الجزل المتين ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

الريب شك فيه تهمة وسوء الظن. تتوهم بالشيء أمرا ينكشف لك عما تتوهمه. والهدى والهداية والاهتداء معناها في موضوع اللغة واحد. إلا أن عرف القرآن الكريم قد خص الهدى بما تولاه الله وأعطاه واختص هو به، دون ما هو من الإنسان وإليه. ومثل هدى للمتقين، أولئك على هدى من ربهم، فمن تبع هداي، قل إن هدى الله هو الهدى. والاهتداء يختص بما يتحراه الإنسان على طريق الاختيار من أمور الدنيا والآخرة مثل ﴿ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾.

والقرآن هدى في جميع مطالب الدين، في معرفة الله وأسمائه، وفي الإيمان بالأنبياء وشرائع الاجتماع وفي آدب العبد مع ربه.

والاتقاء افتعال من الوقاية. وهي حفظ الشيء عما يؤذيه ويضره. وغلب التقوى في عرف الشرع على حفظ النفس عما يؤثم وعما يؤلم. وقد يسمى الخوف تقوى، والتقوى خوفا. فالاتقاء أن تحفظ نفسك عما يؤثمك ويؤلمك. أو أن تتخذ الشيء وقاية يحول بينك وبين ما يؤثمك ويؤلمك.

فالمتقي من اتخذ الله وكيلا يهديه إلى الخيرات والحسنات، واتخذه وقاية يحول بينه وبين الشرور والسيئات. فالقرآن يكون هدى له في جميع مطالب حياته العاجلة والآجلة، ويكون هدى له إلى جميع حاجاته الحاضرة والباقية.

٥٦) – الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون: ذكر في الآية السابقة أن ذلك الكتاب هدى للمتقين، فذكر في هذه الآية أركاناً يكون بها كمال الهدى وكمال الاتقاء: ١) صدق الاعتقاد، وخلوص الإيمان، ٢) صلاح الأعمال، والاستقامة على الاعتدال، ٣) كمال الأخلاق العالية، وهي أول أساس للأعمال النافعة.

وهذه الأركان الثلاثة هي الأصول التي تنبني عليها سعادة الحياة الإنسانية وانتظام الهيئة المدنية.

٥٧) – أما صدق الإيمان والإخلاص في الاعتقاد فهو روح كل عمل. ومن لا إيمان له ثابت فلا عمل له نافع. ولا يكون في عمل الإنسان إقدام ودوام وبسالة، إن لم يكن في قلبه إيمان بأن معتقده حق وأن أمله واقع لا محاله.

٥٨) – وجملة «يؤمنون بالغيب» من حيث كونها جملة مؤلفة من كلمات ذات معان مختلفة تحتمل وجوها متعددة. والكلام إذا احتمل وجوها فالأكثر أن الواحد منها يتعين بحكم المساق وبقرينةٍ من قرائن المقام. وقد لا يوجد قرينة تعين أحد الوجوه، فإن كل الكلام كلام إنسان، فالغالب أن القائل لم يرد به إلا وجها من الوجوه على حسب ما يحضر عنده من العلم. فقد يطابق وجه السامع قصد القائل فيصيب؛ وقد يخالف فيخطئ. هذا هو الغالب في كلام الإنسان، فإن الغفلة على طبعه غالبة. أما إذا كان الكلام كلام الله، واحتمل وجهين أو وجوها كثيرة على حسب وضع اللغة، ولم توجد قرينة تعين أحد الوجوه، فكل وجوهه كثيرة، وجميع معانيه لا بد أن تكون

مقصودة. لأن الغفلة على قائله ممتنعة. وعلمه محيط بجميع الوجوه والجهل ممتنع. وقد أنزل هذا الكلام وعلم أن عباده متفاوتون في النظر فيه والفهم منه. ولم يجعل في كلامه حين أنزله ما يعين أحد الوجوه، ولم يكلف أحدا إلا وسعه. فكل من فهم وجها فقد أصاب. ومن هدي إلى جميع الوجوه فقد أوتي الحكمة وفصل الخطاب. هذا هو ديننا في كلمات القرآن الكريم، وهذا هو مذهبنا في فقه الأسلوب الحكيم.

والباء في (بالغيب) يحتمل الظرفية. فمعنى الكلام يؤمنون حال الغيب وحال الحضور. لا كالمنافقين ﴿وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ﴾. ونظيره قول يوسف: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾. فالغيب على هذا الوجه يقابل الحضور. منه قوله:﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾. وقوله:﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ﴾.

ويحتمل أن يكون كالباء في قولك كتبت بالقلم. فمعناه يؤمنون بقلوبهم الغائبة عن الناس. لا ﴿ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾.

ويحتمل أن يكون الباء صلة توصل معنى الفعل إلى معتله. فالغيب على هذا كل ما غاب عن العيون والحواس، وكان معناه محصلا في القلوب. والإنسان لا ينال الغيب بهذا المعنى إلا إذا قوي قلبه واتسع مجال أفكاره، ولم يكن قلبه وعقله محصورا في دوائر الحواس، بل يكون له عقل يرفع ستور الاستقبال، وقلب يجد من ورائه ريح الآمال.

وكل هذه المعاني يدل عليها تركيب الجملة على حسب وضع اللغة. وكلها قوية صحيحة مقصودة.

٥٩) – والغيب بهذا المعنى له درجات:

أ) ما غاب عن العيون وكان معناه محصلا في القلوب، وله دليل عقل أو برهان وجدان، يهتدي به الإنسان إليه. وغالب الحقائق الغائبة التي نالها الإنسان ويناها من هذا النوع.

ب) ما غاب عن الحواس وله معنى محصل في القلوب، لم يصل إليه الإنسان إلا ببركة الخبر دون النظر. منه بعض تفاصيل ما يجعل ركنا في الإيمان الديني.

ج) ما غاب عن الحواس وغاب عن العقل فلم ينصب له دليل ولم يجعل لإدراكه من سبيل، بل استأثره الله لنفسه. وهذا نوعان. نوع يظهر على من ارتضى من عباده. منه قوله: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾.

د) نوع لا يطلع أحدا ولا يظهره عليه. منه قوله: ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾.

٦٠) – ذكر صدق الإيمان وخلوصه، وذكر بعده إقامة الصلاة. وهي أداؤها بتعديل أركانها وآدابها، والمحافظة عليها في أوقاتها، وأن يكون القلب حيا بروح العبادة، حتى تكون صلاته تنهاه عن الفحش والمنكر؛ فيكون صلاح الأعمال والاستقامة على الاعتدال له ملكة.

٦١) – والصلاة أصلها وروحها هو توجه المخلوق بقلبه ووجوده إلى خالقه الكريم. منه قوله جل جلاله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾.

وهي من العبادات التي لا تنفك أمة ولا شريعة منها، وإن اختلفت صورها وهيآتها على حسب اختلاف أحوال الأمم واختلاف الشرائع. ولذلك قال جل جلاله: ﴿ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾.

٦٢) – والصلاة معناها معلوم لا إجمال فيها. كانت في أول الإسلام، ثم أخذت تزيد أركانها، وتجتمع آدابها حتى بلغت ووصلت إلى هيئتها المعروفة اليوم في الإسلام. وهي بهيئتها هذه فرضت في أوائل الإسلام. ولها ركنان: ١) قلبي هو روحها، ٢) بدني هو هيئتها من قيام وركوع وسجود. والصلاة عماد الدين وروح الإسلام. من حافظ عليها حفظ دينه. ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع.

٦٣) – وكل لفظ عربي ورد في القرآن ورود تكليف يحمل على أبسط معانيه. فلا يكون فيه إجمال. ثم قد يكون أن الشارع يبينه بفعله وقوله، فيزيد على أبسط معانيه أشياء لم تكن قبل. فيكون في بادئ الرأي كأنه مجمل، وكان نصاً ظاهراً ولم يزل ظاهرا.

٦٤) – ذكر الإيمان وذكر بعده الصلاة وهي الإخلاص للرحمان، ثم ذكر بعدها الإنفاق وهو الإحسان للإنسان. وقد جمع القرآن بين هذه الأصول في غير موضع. فقال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾. وقال: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ *وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾. وقال: ﴿ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ . فإن مدار النجاة على هذه الأصول الثلاثة. ولا فلاح لمن أخل بها.

٦٥) – الإنفاق مشتق من نفق. وله في لسان العرب معان أصحها الإتلاف والاستهلاك. وهو المراد هاهنا. ويكون بالتمليك والإباحة للغير؛ ويكون بالتناول والصرف في حاجات نفسه؛ ويكون بالبذل في الوجوه.

والإنفاق في الآية يدخل فيه الزكاة، والنفقة على الأهل والأقارب، ويدخل فيه كل التبرعات، وأداء الحقوق الواجبة العارضة في الأموال باقتضاء الأحوال.

٦٦) – أدخل من التبعيض فإن ما ينقصه الإنسان جزء قليل وحظ حقير بالنسبة إلى ما رزقه الله الكريم. فإن لله نعماً على عبده إن عدها لا يستطيع أن يحصيها. ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾.

٦٧) – وفي التبعيض فوائد أخر: منها:

أ) تقديم حق النفس وحقوق الأهل على سائر الحقوق الواجبة في الأموال. ومنها:

ب) تقدير الإنفاق على قدر الحاجة. فإن حفظ الأموال وادخارها لوقت الحاجة أصل عظيم ضروري كأصل الإنفاق.

٦٨) – التوسع في الإنفاق له ثلاثة أوجه:

أ) في الوجوه المحمودة عقلا، النافعة فعلا، الجميلة وقوعا. والتوسع في مثل هذه الوجوه مطلوب شرعا.

ب) في الوجوه المذمومة عقلا الضارة فعلا القبيحة موقعا. ولا شك أن الإنفاق في مثل هذه الوجوه ممنوع شرعاً.

ج) التوسع في الإنفاق في المباحات بالاصالة. كالإنفاق في ما تهواه الأنفس من الملاذ والرفاهية. فإن كان لدفع مفسدة ناجزة أو متوقعة أو كان فيه غرض صحيح من مصلحة البدن وراحة النفس فالإنفاق فيه مطلوب شرعا. وإن لم يكن فيه ذلك ولم يكن في معصية فالإنفاق فيه مباح.

٦٩) - الإنفاق في الآية يدخل فيه كل وجوه الإنفاق التي بيناها. وذكره على سبيل الثناء؛ لأن حرية الإنسان وكمال اختياره في كل تصرفاته المعقولة كمال عظيم لا يتم الأهلية إلا به. وهي نعمة إلهية عظيمة ذات بركة جسيمة.

٧٠) - والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون.

ذكر أن ذلك الكتاب هدى. وذكر في هذه الآية أن كمال هدى القرآن هو هدايته إلى الإيمان بأنبياء جميع الأديان. وهذه هداية جليلة قدمنا بيانها في الفقه (٣٠).

٧١) - الإيمان ﴿ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ داخل في عموم الإيمان بالغيب بالمعنى الثاني من معاني الغيب التي قدمناها في الفقه (٥٩). والنص على الخصوص بعد بيان العموم في القرآن الكريم كثير. وله أسباب. منها تعظيم الخصوص والتنويه بذكره. مثل قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾. ومثل قوله:﴿ فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾. وذلك لأن الصلاة لذكر الله أجل عبادة. ومنها أن العموم قد يكون فيه إطلاق لا يتبادر منه الشمول. ولهذين الوجهين ذكر الإيمان بما أنزل إلى الأنبياء بعد ذكر الإيمان بالغيب. فإن الإيمان بما أنزل إلى الأنبياء أجل نوع من جملة الإيمان بالغيب. وهو هدى جليل في ذكره نصا وخصوصا فائدة.

٧٢) - قد يذكر القرآن الكريم اسما منفردا فيفقد العموم. وإذا قرن باسم آخر يختص بغيره. مثل اسم الفقير والمسكين. لما أفرد أحدهما في قوله:﴿ لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ﴾. وفي قوله:﴿ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾. دخل فيه الآخر. ولما قرن بينهما في

قوله: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ﴾.كان لكل اسم معنى يدل هو عليه. فيحتمل أن يكون الإيمان بما أنزل مع الإيمان بالغيب من هذا الباب.

٧٣) – الإنزال له في القرآن الكريم وجوه استعمال:

أ) ﴿ هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾.

ب) ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾.

ج) ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا﴾.

د) ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ .

هـ) ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ .

٧٤) – ورد النزول في القرآن الكريم في أشياء نعلم قطعا وعيانا أنها لا تتكون إلا في الأرض ولا تخرج إلا منها. كالحديد واللباس والحيوانات. فالنزول والإنزال له معان، كل من أراد أن يتوسع في فقه القرآن ورغب في أن يهتدي إلى حل مسألة علمية بدلائلها يجب عليه أن يحيط بها ويتعمق فيها. منها مسألة نزول الوحي ونزول الكتب من سماء العزة إلى الأنبياء وعلى الرسل الكرام صلى الله جل جلاله عليهم وعلى آلهم وسلم. والمسألة ذات شأن عظيم، وفي حلها فائدة جزيلة تهدي عقل المؤمن إلى وجوه إعجاز القرآن الكريم. ولذا رأينا أن نؤجل بيانها إلى خاتمة «فقه القرآن» ليكون الطالب المستفيد عند سماع بياننا على علم وإحاطة وبرهان.

٧٥) – الإيقان هو العلم بالشيء بعد أن كان صاحبه شاكا يتردد فيه. فلا يقل قائل تيقنت وجودي وتيقنت أن السماء فوقي؛ لأن العلم هاهنا غير مستدرك. ويقال أيضا

في العلم الحادث بعد أن لم يكن، سواء كان ذلك العلم ضروريا حصل بغير اختياره، أو كان نظريا حصل له باستدلاله. ولذلك لا يوصف الله جل جلاله بأنه يتيقن الأشياء؛ لأن الحدوث وسبق الشك والغفلة داخل في مفهوم الإيقان. وحيث كان الإنسان لا يهتدى إلى الإيمان بتفاصيل الآخرة إلا ببركة الخبر السماوي قال في العلم بالآخرة يوقنون. ولم يجئ في العلم بالله جل جلاله الإيقان لأن العلم به فطري للإنسان.

٧٦) – جعل الإيقان بالآخرة من تمام الهداية وكمال الاتقاء. فإن الإنسان خلقه الرحمان على صورته للسعادة الباقية. ولم ينلها الإنسان ولا ينالها في هذه الحياة الفانية. فالسعادة الباقية لا تكون إلا في النشأة الآخرة. وقد قدمناه في الفقه (١٢)

٧٧) – قال أهل الأدب إنّ التقديم يفيد فوائد، منها الحصر. فقوله جل جلاله ﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ يفيد أن المهتدي يوقن بالآخرة، ثم تقديم المعمول على عامله يفيد أن المهتدي لا يوقن بغيرها. وهذا لا يراد هاهنا قطعا فإن عدم الإيقان بغير الآخرة لا يكون مدحا.

فالتقديم إن أفاد الحصر فهاهنا حكمان:

أ) إيقان المهتدي بالآخرة. وهذا منطوق الكلام، مقصود.

ب) عدم إيقانه بغير الآخرة. وهذا مفهوم، غير مقصود في مقام الثناء قطعا.

٧٨) – تقديم المسند إليه في قوله جل جلاله: ﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ إن أفاد الحصر فهذا الحصر الثاني إنما يتسلط على الحكم الأول الذي ثبت بالمنطوق فيفيد أن من لم يهتد لا يوقن بالآخرة ولا يتسلط على الحكم الثاني الذي قلنا إنه ثبت بالمفهوم فلا يفيد أن

من لم يهتد يوقن بغيرها؛ لأن مثل هذا لا يقصد في مقام الثناء على المهتدي. ودلالة الكلام لا تتجاوز حدود القصد.

هكذا ينبغي أن يشرح ما أدعاه أهل الأدب من إفادة التقديم الحصر.

٧٩) – شرحنا قول أهل الأدب في المثال. ونريد الآن أن نتوسع في البيان ليهتدي به الطلبة إلى فهم نظم القرآن. فنقول إذا جارينا أهل الأدب وقلنا إن التقديم يفيد الحصر والاختصاص فالظاهر بادي الرأي أن الإنكار في مثل: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا﴾. ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾.- ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ﴾ .- ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾.- ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ﴾. يتوجه على الاختصاص. وليس كذلك. وإلا لأفادت هذه الجمل إنكار الاختصاص، ودلت بالمفهوم على جواز التشريك. ومعلوم قعطاً أن إنكار الاختصاص غير مفيد، والتشريك غير مطلوب.

بل إذا دخل الإنكار على كلام فيه الاختصاص فقد يفيد إنكار الاختصاص، وقد يفيد اختصاص الإنكار. وقصد القائل بقرينة المقام هو الذي يعين أحد الوجهين. لأن دلالة الكلام لا تتجاوز دائرة القصد. الأمثلة الخمسة التي تلوناها في هذا الفقه لإفادة اختصاص الإنكار.

والنفي في هذا الحكم مثل الإنكار. فإذا قلت أنا فعلت هذا أفدت الاختصاص. أما إذا نفيت وقلت ما أنا فعلت هذا لم يكن كلامك لنفي الاختصاص بل لا يكون إلا لاختصاص النفي. فتكون كأنك قلت لم أفعله بل فعله غيري.

٨٠) – قال إمام أهل الأدب، إمام البلاغة عبد القاهر رضي الله عنه في فصل التقديم والتأخير من دلائل الإعجاز «واعلم أن حال المفعول في ما ذكرنا كحال الفاعل، أعني أن تقديم الاسم المفعول يقتضي أن يكون الإنكار في طريق الإحالة والمنع من أن يكون بمثابة أن يوقع به مثل ذلك الفعل. فإذا قلت: أزيدا تضرب؟ كنت قد أنكرت أن يكون زيد بمثابة أن يضرب أو بموضع أن يجتزأ عليه ويستجار ذلك فيه. ومن أجل ذلك قدم غير في قوله جل جلاله ﴿ **قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا** ﴾. وقوله عز وجل: ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ** ﴾ .- وكان له من الحسن والمزية ومن الفخامة ما تعلم أنه لا يكون له آخر، فقيل:﴿ **قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا** ﴾.- ﴿**قل اتدعون غير الله**﴾. وذلك لأنه قد حصل بالتقديم معنى قولك: أيكون غير الله بمنزلة أن يتخذ وليا، وبمنزلة أن يرضى عاقل من نفسه أن يفعل ذلك، وهل يكون جهل اجهل، وعمى اعمى من ذلك؟ ولا يحصل شيء من ذلك إذا قيل: «**أأتخذ غير الله ولياً.**» وذلك لأنه حينئذ يتناول الفعل أن يكون فقط، ولا يزيد على ذلك. فاعرفه» انتهى.

٨١) – والذي نراه، ولا نرى أن الحق يتعداه، أنه لا يقدم في الكلام إلا المقصود. وذلك على حسب قصد القائل، أو على وفق حال السامع؛ فإن جهل الفعل وقصد الإخبار عنه قلت «كتب زيد.» وإن كان الفعل معلوما وجهل الفاعل قلت «زيد كتب». وإذا أنكرت الفعل تقول «**أأتخذ غير الله ولياً؟**» وإن أنكرت المفعول تقول «**أغير الله اتخذ ولياً؟**» وهذا على حسب حال المخاطب. وإذا علم صاحبك أن زيدا أكرم أحدا وسألك عن تعيين المكرم تقول عمرا أكرم زيد وإذا سألك سائل عن الدار، هل هي خالية، أو فيها أحد، تقول في الدار رجل. تقدمها لأن السائل سأل عنها. وإذا علم أن فيها أحدا وسألك عن تعيينه فإن قلت في الدار زيد أصبت في الجواب وأخطأت في النظم؛

وإن قلت رجل في الدار أصبت في النظم وأخطأت في الجواب، ولم تفد السائل فائدة، وتركت سؤاله من غير الجواب. بل يجب بحكم النظم أن تقول زيد في الدار.

وهذا هو الوجه في أن النكرة لا تفيد في الابتداء، وتفيد إذا كانت فاعله. فقول القائل «قام رجل» مفيد، لأنه جواب عن قول قائل أي شيء حدث؟ أما قولك «رجل قام» فلا يفيد لأنه جواب عن قول قائل علم القيام ولم يعلم القائم فقال من قام؟

وإن قال لك قائل أي شيء حدث؟ وقلت له رجل قام فقد أصبت في الجواب من حيث المعنى وأفدته فائدة طلبها هو، إلا أن النظم وترتيب أجزاء الجملة خطأ. لأن مقصود السائل هو تعيين الحدث، فكان يجب تقديمه وأن تقول قام رجل.

وقد يكون أن النكرة تكون مفيدة في الجواب عن التعيين، فيجوز وقوعها في الابتداء. والشاهد:

عشية سعدى لو تراءت لراهب   بدومة، تجر دونه وحجيج
قلى دينه واهتاج للشوق إنها   على الشوق إخوان العزاء هيوج

فكان قائلا قال ومن كان عند راهب بدومة؟ فقال في الجواب أهل تجارة كانوا عنده وحجاج. فحيث أفادت النكرة في هذا المثال التعيين جاز وقوع «تجر» في الابتداء.